الفصل الرابع

الجانب الكلامي و عناية الحوفي به

جاءت عناية الحوفي بالجوانب التفسيرية مترابطة متماسكة يخدم بعضها بعضا فقد بان لنا كيف كانت عنايته بالجانب اللغوي و مدى ارتباطه بالجانب النقلي و الفقهي كل ذلك للكشف عن المعنى و إبرازه في صورة تفسيرية متكاملة، و إذا كان ذلك كذلك و لكي تكتمل الصورة التفسيرية كان من الضروري على عالم كالحوفي أن يهتم بالجانب الكلامي ليقف بذلك أمام الفرق التي خالفت أهل السنة و الجماعة، و التي انتشرت و تفاقم خطرها في عصره حتى عدّها البغدادي ثلاثاً و سبعين فرقة استناداً على الحديث المروي عن الرسول صلى الله عليه و سلم يقول:" أخبرنا أبو سهل بشر بن أحمد بن بشار الإسفرايني قال: أخبرنا عبد الله بن ناجية، قال: حدثنا وهب بن بقية عن خالد بن عبد الله عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم" افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين و سبعين فرقة و تفترق أمتي على ثلاث و سبعين فرقة"(١) تلك الفرق التي نشأت و ارتقت و تشعبت حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في عصر الحوفي كانت بحاجة إلى وجود من يقف أمامها ليزود عن الأفكار الإسلامية أو يبصِّر هؤلاء المنحرفين دينياً بمقتضيات الدين الإسلامي، و إن كانت تلك الفرق في بداية نشأتها قد اتخذت طابعاً سياسياً بحتاً تحورت بعده إلى الطابع الديني، فبداية من العصر العباسي الأول لم تتخذ الأحزاب هذا الشكل السياسي البحت بل اصطبغت صبغةً دينيةً قويةً، و صار كل حزب سياسي فرقة دينية

١ - البغدادي: الفَرْقُ بين الفِرق ٩.

و صار الذين يقتتلون سياسياً يقتتلون دينياً، و بدل أن يسمى الحزب اسماً سياسياً يدل على المبدأ السياسي الذي يدعو إليه تسمى اسما يدل على المذهب الديني: كشيعة و خوارج و مرجئة، و بدل أن يتحاجوا بما ينتج من أعمالهم من مصالح و مفاسد تحاجوا بالكفر و الإيمان و الجنة و النار[1]، و حتى وصل الأمر ببعض الفرق إلى تأويل آي القرآن وفقاً لمذهبهم كما وضحناه في الفصول السابقة و التشيع لعلي و سب أبي بكر و عمر، بل وصل الأمر لغلاة الشيعة إلى تأليه الحاكم مما دعا أهل السنة للتصدي لهم و الزود عن عقيدة الإسلام، عقيدة الإسلام إنما الأساس فيها التمسك بالكتاب و السنة استناداً لحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله و سنتي"، و الحوفي كعالم سني رأيناه يتصدى لهم و يبطل ما يدعونه، فتارة يزود عن أبي بكر و عمر، و إن كان ذلك بطريق التلميح لا التصريح و له عذره في ذلك فالبيئة المحيطة يحكمها الشيعة ، ففي قوله تعالى﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[2] يقول و يقال ما معنى سؤالهم الهدي و هم على الهدى، فالجواب: قالوا ذلك على طريق التثبت أي تثبت كما تقول للقائم قم حتى أعود عليك أي اثبت قائما (... وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)[3] أي لا يوفقهم و لا يشرح للحق و الإيمان صدورهم وروي عن علي رضوان الله عليه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ كتاب الله، و كذلك رُوِي عن عبد الله و رُوِي أن ابن الحنفية قال: هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره و إليه ذهب ابن جرير، رُوِي عن أبي العالية قال: ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ رسول الله و صاحباه أبو بكر و عمر رضي الله عنهما[4].

١ - أحمد أمين: ضحى الإسلام٣/٥.
٢ - سورة الفاتحة آية ٦.
٣ - سورة الأحقاف آية ١٠.
٤ - الحوفي: البرهان ٢١/١.

فالحوفي باستناده على تلك الأقوال وجمعه بين ما روي عن على بن أبي طالب وما قاله أبو العالية في معنى الصراط المستقيم إنما أراد أن يبيِّن لغلاة الفرق أن صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم كالمصابيح بأيهم اقتديتم اهتديتم دون سب أو تفضيل.

كما نراه في موضع آخر يكشف النقاب عن مسألة دار حولها الخلاف و هي مشكلة "خلق القرآن" ، ففي قوله تعالى:

﴿ ...وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١)، يقول: فإن قال قائل: ما معنى قولهُ﴿ ...وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٢)

و في أي حال هذا الأمر الذي يقضيه بقولهُ﴿ ... كُن ﴾في حال عدمه فتلك حال لا يجوز أن يؤمر إذا كان محالاً أن يؤمر إلا مأمور، فإذ لم يكن المأمور استحال الأمر كما محال الأمر من غير آمر، فكذلك محال الأمر من آمر إلا مأمور، أم يقول ذلك له في حال وجوده و تلك حال لا يجوز فيها بالحدوث لأنه حادث موجود و لا يقال للموجود كن موجوداً إلا بغير معنى الأمر بحدوث عينه و الجواب: أنه قال المتأولون في معنى ذلك أقوالا، فقال بعضهم: ذلك خبر من الله عز و جل عن أمره المحتوم على وجه القضاء لمن قضي عليه قضاء أمر خلقه الموجودين، أنه إذا أمر بأمر فقد قدّر عليه قضاؤه و مضى فيه أمره نظير أمره فيمن أمره من بني إسرائيل: قالُ:﴿ ... كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ (٣)، و هم موجودون في حال أمره إياهم بذلك و حتم قضائه عليهم بما قضى فيهم و كالذي خسف به و بداره الأرض، وما أشبه ذلك من أمره المحتوم عليه فَوَجَّهَ قائلوا هذه المقالة قولهُ ﴿...وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٤) إلى الخصوص دون العموم. و قال

١ - سورة البقرة آية ١١٧.
٢ - سورة البقرة آية ١١٧.
٣ - سورة البقرة آية ٦٥.
٤ - سورة البقرة آية ١١٧.

آخرون: لا الآية عام ظاهرها فليس لأحد أن يحيلها إلى خصوص بغير حجة يجب التسليم بها و قالوا إن اللّه عالم بكل ما هو كائن قبل كونه فلما كان ذلك كذلك كانت الأشياء التي لم تكن و هي كائنة لعلمه بها قبل كونها نظائر التي هي موجودة فجاز أن يقول لها: كوني و بأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود لتصور جميعها له و لعلمه بها في حال العدم، و قال آخرون: الآية و أن كان ظاهرها ظاهر عموم فتأويلها الخصوص لأن الأمر كائن إلا لمأمور و على ما وصفت قبل قالوا وإذا كان ذلك فالآية تأويلها و إذا قضى أمراً من إحياء ميت و إماتة حي أو نحو ذلك فإنما يقول للحي كن ميتا أو يقول للميت كن حيا و ما أشبه ذلك من الأمر. و قال آخرون: بل ذلك من اللّه عز وجل خبر عن جميع ما ينشئه و يكوّنه أنه إذا قضاه و خلقه و أنشأه كان و وُجد و لا قول هنالك عند قائلي هذه المقالة لا وجود المخلوق، و قالوا إنما قول اللّهُ ﴿ ...وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١) نظير قول القائل: قال فلان برأسه وقال بيده إذا حرك رأسه أو أومأ بيده و لا يقل شيئا، كما قال عمرو بن حمد الدوس:

فأصبحتْ مثلَ النسرِ طارت فِراخه **** إذا رام تطـــايراً يقـــال لـــهُ قـــعِ

و لا قول هنالك، و إنما معناه إذا رام طيراناً وقع، وكما قال لآخر:

امـــتلأ الحـــوضُ و قـــال قَطْنِـــي **** ســـلاَّ رُوَيْـــداً، قـــد مـــلأت بطـــنِي

و الحوض لم يقل. و قال آخر: فإنما يقول له أي من أجله فكأنه إنما يقول من أجل إرادته إياه " كن " أي احدث فيحدث. و ابن جرير يختار أن تكون الآية على العموم لا على الخصوص و يقول: حملها على الظاهر أولى من إحالتها إلى باطن من غير برهان، وإذا كان ذلك كذلك فأمر اللّه عز وجل لشيء إذا أراد تكوينه موجوداً بقوله: كن في حال إرادته إياه

١ - سورة البقرة آية ١١٧.

مكونا، لا يتقدم وجود الذي أراد إيجاده و تكوينه إرادته إياه و لأمره بالكون و الوجود و لا يتأخر عنه، فغير جائز أن يكون الشيء مأموراً بالوجود مراداً كذلك إلا وهو موجود، و لا أن يكون موجوداً إلا و هو مأمور بالوجود مراراً كذلك، و نظير قوله "وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ"، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ (١).

نجد أن الحوفي يرى أن الآية على الخصوص لا على العموم، وهو يوضح ذلك في تعليله على القراءة يقول: قرأ ابن عامر" فيكون " بالنصب على الجواب و قد أُنكر ذلك عليه، وقالوا الكلام ليس بأمر، إذا الأمر إنما يتوجه إلى مأمور لأنه إن كان موجوداً فوجوده يغني عن أمره بالوجود، و إن كان معدوما فلا معنى لأمر المعدوم و إنما لفظه لفظ الأمر و معناه الخبر، و هذا إنما حمله على الخصوص لا العموم كما في قوله ﴿ ... كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾(٢)، و في إحياء أموات وإماتة أحياء و هذا ليس على العموم لأنه أمر للحاضر الموجود فهو خاص، و يقول: " إن المعدوم بمنزلة الموجود تقريبا لأمره لأنه موجود عنده و إن كان معدوما عندنا، وإذا كانوا قد أجروا ما لا يعقل الخطاب و لا يتلقاه مجرى ما يعقل و يتلقى، فالمعدوم وجوده في أسرع وقت بأن تقوم مقام الموجود أولى،و إذا ساغ ذلك في الاستعمال على وجه لم يعدل به إلى ما يوجبه الخطأ فيما قد صح عن إمام من الأئمة، و أيضا فقد أجازوا النصب في الواجب أنشد سيبويه لطرفة بن العبد:

لنا هضبة لا ينزل الذل وسطها **** و يأوي إليها المستجير فيعصما(٣).

و الحوفي و إن قال بالخصوص مخالفاً بذلك ابن جرير الطبري إلا أنه يناقش ذلك الأمر على طريق التعليل يقول و يسأل من زعم أن قوله ﴿ ...وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا

١ - سورة الروم آية ٢٥.
٢ - سورة البقرة آية ٦٥.
٣ - الحوفي: البرهان ١٢٥/١..

يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[١] خاص في التأويل اعتلالا بأن أمر غير الموجود غير جائز، عن عن دعوة أهل القبور قبل خرجوهم من قبورهم – أم بعده ، أم هي خاص في الخلق، فلن يقول في ذلك قولا إلا أُلزم في الآخر مثله، و قال و أما الذين زعموا أن معنى قوله تعالى ﴿ ...فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[٢] نظير قول القائل برأيه أو بيده إذا حرّك أومأ و نظير قول المثقب العبد مخبراً ناقته :

تقول إذا درأت لها وَضِينِي **** أهذا دينُه أبداً و ديني[٣].

و ما أشبه ذلك فإنهم لإصواب اللغة أصابوا، و لا كتاب الله و ما دلت على صحته الأدلة اتبعوا فيقال لقائل ذلك إن الله عز وجل ثناؤه خبَّر عن نفسه أنه إذا قضى أمرا قال له " كن " أفينكرون أن يكون قائلا ذلك؟ فإن أنكروه كذَّبوا بالقرآن و إن قالوا نُقِرْ به و لكنا نزعم أن ذلك نظير قول القائل : قال الحائط فمال، و لا قول هنالك و إنما ذلك خبر عن ميل الحائط إذا أراد أن يميل أن يقول هكذا فيميل؟

فإن أجازوا ذلك خرجوا عن معروف كلام العرب، و خالفوا منطقها وما يعرف من لسانها، و إن قالوا ذلك غير جائز، قيل لهم فإنَّ الله تعالى أخبر عن نفسه أن قوله للشيء إذا أراده أن يقول له ﴿ ... كُن فَيَكُونُ ﴾[٤] فاعلم عباده قوله الذي يكون به الشيء و وصفه ووكده، وذلك عندكم غير جائز في العبارة عما لا كلام له ولا بيان في مثل قول القائل: قال الحائط فمال، فكيف لم يعلموا فذلك فرق ما بين معنى قول الله تعالىُ ﴿ ...فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[٥]، و قول القائل: قال الحائط فمال.

١ - سورة البقرة آية ١١٧.
٢ - سورة البقرة آية ١١٧.
٣ - ذكره المبرد في الكامل ١٩٣/١ شاهداً على أن الدين العادة: يقال: ما زال هذا ديني و دأبي و عادتي و ديني.
٤ - سورة البقرة آية ١١٧.
٥ - سورة البقرة آية ١١٧.

obeikandi.com

و إذا كان الأمر في قوله تعالى: ﴿ ...وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١) هو ما وصفنا من أن حال أمره الشيء بالوجود خلاف وجود المأمور بالوجود، فبيَّن بذلك أن الذي هو أولى بقوله فيكون، الرفع على العطف على قوله" يَقُولُ " لأن القول و الكون حالهما واحدة و قد تقدم ذكر الرفع و النصب بما يغني عن إعادته(٢).

و الحوفي في هذا الجانب تلمس خطوات ابن جرير الطبري فقال بما قال به و إن كان قد خالفه في بعض الجزئيات إلا أنه اتفق معه في جوهر القضية ليصل عن طريق البرهان إلى حسم قضية شغلت العالم الإسلامي فترة من الزمن و هي مشكلة خلق القرآن و إن كان ابن جرير الطبري لم يتعرض لتلك المشكلة بطريق مباشر بل اكتفى بتلك النتيجة و هي قوله: فمعنى الآية إذاً: و قالوا اتخذ اللّه ولدا، سبحانه أن يكون له ولد، بل هو مالك السموات و الأرض و ما فيهما، كل ذلك مقر له بالعبودية بدلالته على وحدانيته و أنى يكون له ولداً و هو الذي ابتدع السموات و الأرض من غير أصل، كالذي ابتدع المسيح من غير والد بمقدرته و سلطانه، الذي لا يتعذر عليه به شيء أراده بل إنما يقول له إذا قضاه فأراد تكوينه كن فيكون موجودا كما أراده وشاءه، فكذلك كان ابتداعه المسيح و إنشاؤه إذا أراد خلقه من غير والد(٣).

و لعل من يتأمل برهان ابن جرير الطبري يستدل منه عن تلك المشكلة، نرى الحوفي قد سلك طريق ابن جرير الطبري دون حرج ليصل إلى تلك المشكلة مباشرة يقول: وإذا قد ثبت بما ذكرنا من أنه أراد تكوين الأشياء و إحداثها قال لما يريد إحداثه ﴿ ... كُن فَيَكُونُ ﴾ (٤) ففي هذا رد على من زعم أن القرآن مخلوق و يستدل على ردِّ قوله إنه

١ - سورة البقرة آية ١١٧.
٢ - ابن جرير الطبري: جامع البيان ٥٥٠/٢.
٣ - الحوفي: البرهان ١٢٦/٢ – ١٢٨.
٤ - سورة البقرة آية ١١٧.

مخلوق بقوله عز وجل قائلا له "كن " ولو كان " كن " ، وهذا يوجب أن يكون كل قول قد وقع بقول فيكون ذلك لا إلى نهاية، فلما استحال ذلك استحال أن يكون كلام الله مخلوقاً، فإن قال قائل : ما أنكرتم أن يكون معنى قوله " أنه يقول له كن فيكون " لا أنه يقول له " كن " كما قال عز وجل ﴿... جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾(١)، معناه أن الجدار ينقض لا أنه يريد أن ينقض قيل له: الجدار مستحيل أن يكون مريداً، فلذلك كان معنى إخبار الله تعالى أنه يريد أن ينقض معناه أن الجدار ينقض ، والله تعالى لا يستحيل أن يكون مريداً قائلا وإذا لم يستحل ذلك فقد وجب أنه إذا خلق شيئا قال له "كن " في الحقيقة،كما لا يخلق ما لا يريد لأنه أخبر عن نفسه أنه يريد و أنه يقول لما يريده "كن " فيكون فإن قال : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿... قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(٢) كما قال ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾(٣)، فخبر بالكلام عن ما لا يتكلم، و ما يدل على أن كلام الله عز و جل غير مخلوق أن كلامه و كان مخلوقاً محدثاً لكان الله قبل خلقه إياه و إحداثه غير قائل و لا متكلم على قولهم ، و الحي إذ لم يكن متكلماً كان موصوفاً بالسكوت أو الآفات التي تكون كالخرس و غيره، فلما لم يجز أن يكون الله تعالى موصوفا بهذا و ثبت أنه لم يزل متكلماً قائلا وان كلامه غير محدث ولا مخلوق ألا ترى أن الله تعالى لا يجوز أن يكون عالما بعلم مخلوق لأنه لو كان علمه مخلوقا لكان قبل خلقه إياه غير عالم لكان موصوفاً بما يوصف به من لا يعلم أو بآفة من الآفات فلما لم يجز ذلك على الله تعالى عما ينسبه إليه المتبعون ما تشابه من كتابه ابتغاء الفتنة عالماً و أن علمه غير مخلوق و كذلك لما استحال أن يوصف الله عز وجل بالسكوت و الآفات صح و ثبت أنه لم يزل متكلماً و أن كلامه غير محدث ولا مخلوق. و أما احتجاجهم بما يغالطون به من قولهم: (إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(٤)، فزعموا أن كل

١ - سورة الكهف آية ٧٧.
٢ - سورة فصلت آية ١١.
٣ - سورة يس آية ٦٥.
٤ - سورة الزخرف آية ٣.

مجعول مخلوق فهذا جهل باللغة تقول: إن الجعل[١] إذا كان بمعنى الخلق تعدى إلى مفعول واحد كقولك: وجعل الظلمات و النور، و إذا كان بمعنى وصف و سمي تعدى إلى مفعولين فجعلوه باباً واحداً و لما قرؤوا قول الله عز وجل إخبارا ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾[٢] أتراهم خلقوه وقال :﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ...﴾[٣]، و الله خالق البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام و ما يعرف لذلك خالق غيره و قال ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[٤]، و لم يقل نخلقهم[٥].

و الحوفي بهذا الأدلة التي ساقها ليرد على من قال إن القرآن مخلوق أنه من أهل السنة والجماعة أجمعوا علي أن كلام الله عز وجل صفة أزلية وأنه غير مخلق ولا محدث ولا حادث ، على خلاف قول القدرية في دعواهم إن الله تعالى خلق كلامه في جسم من الأجسام ،وخلاف قول الكرامية في دعواهم أن أقواله حادثة في ذاته ،وخلاف قول أبي الهذيل : إن قوله للشيء كن فيكون لا في محل وسائر كلامه محدث في أجسام[٦].

---

١ - يبين الحوفي في قوله تعالى"يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ " يقول و الجعل ينصرف على وجوه منها أن يكون بمعنى الانقلاب فيتعدى على مفعولين كقولك: جعلت الطين خزفا أي قلبت عينه و يكون بمعنى الظن فيتعدى إلى مفعولين أيضاً كقولك : جعلت الرجل امرأة أي ظنا وتوهما ويكون بمعنى النوع فيتعدى أيضاً إلى مفعولين كقولك جعلت كلامي له شعراً نثراً كأنك قلت جعلته من هذا النوع و يكون بمعنى الخلق فهو بمعنى الصنع و الخلق.
راجع الحوفي: البرهان ٧٢/١ .
راجع الحوفي: البرهان ١٥/١٠ .
٢ - سورة الحجر آية ٩١.
٣ - سورة المائدة آية ١٠٣.
٤ - سورة القصص آية ٥.
٥ - الحوفي: البرهان ١٢٨/٢- ١٣٠.
٦ - عبد القاهر البغدادي :الفرق بين الفرق ٢٠٣.

أما قول أهل السنة فهو :أنه لا يجوز حدوث كلامه فيه لأنه ليس بمحل للحوادث ولا في غيره لأنه يوجب أن يكون غيره به متكلما آمرًا ناهيًا ، ولا في غير محل لأن الصفة لا تقوم بنفسها فبطل حدوث كلامه وصح أن صفته له أزلية(١).

ولعل هذا القول يقودنا إلى مسألة صفات الله هل هي عين ذاته، ومسألة الصفات التي تنحصر في سبع : العلم ، والحياء ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام (٢). تلك المسألة أثارها المعتزلة فبعد أن قالوا بإله واحد، فلسفوا الوحدانية فقالوا أن معني وحدانيته أنه ليست ذاته تعالى مركبة من اجتماع أمور كثرة ، لأنه لو كان مركبًا لافتقر تحققه إلى تحقيق كل جزء من أجزائه ، وكل جزء من أجزائه غيره ،فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره والله منزه عن الافتقار إلى الغير ،فحقيقته تعالى أحدية فردية لا كثرة فيها بوجه من الوجوه فليست له كثرة مقداريه كالتي للأجسام ولا كثرة معنوية كما لأشخاصنا المركبة من ماهية وتشّخص ، إنما هو الأحدية ليس ذا أجزاء مقدارية ولا أجزاء معنوية (٣).

كل ذلك قال به المعتزلة ليصلوا إلى ما بدأنا به وهو هل الصفات هي الذات نفسها أم هي زائدة عن الذات ؟

لقد شاعت تلك المسألة وانتشرت ثم أقفل البحث فيها حتى كان عصر الحوفي فأحيى أصحاب الفرق تلك المسألة وتصدى لهم أهل السنة أيضا ومنهم الحوفي أراد أن يقف أمامهم ، ولكنه بدلا من أن يغلق الحوار معهم ترك الباب علي مصراعيه ،والأحرى بعالمنا أن لايترك الأمر هكذا أن القرآن لم يترك شيئًا إذ جعل لكل داء دواء ، فتلك الصفات التي حددها العلماء بينها القرآن فالعلم والحياء والقدرة والإرادة والسمع و البصر والكلام

١ - عبد القاهر البغدادي : نفسه٢٠٣.
٢ - أحمد أمين:ضحي الإسلام ٢٩/٣.
٣ - أحمد أمين:نفسه ٢٨/٣.

كل ذلك ثابت في القرآن أما الكيفية فليم يطلعنا عليها ، وكان من جوانب الحوفي كعالم سني أن يتصدي لذلك ويسلك مذهب السلف الصالح مالك و الأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وإسحاق بن راهوية وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف و لا تشبيه ولا تعطيل ،والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه (...لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ) (١).

وان يقيس ذلك علي مسألة الاستواء ،عند ما سئل مالك بن انس عن الاستواء وكيفيته فقال الكيف غير معقول ،والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة" (٢)

لأن ما جاء بالقرآن واجب الإيمان به ،أما مسألة الصفات والذات وكلام الله هي ذاته أم هي غير فذلك يدخل في الكيفية التي لم يطلعنا عليها ،ولا يمكن لعقول قاصرة أن تصل إليها فالسؤال عنها بدعه لقد بين الحوفي ذلك عند تفسيره لقوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ (٣).

يقول الاستواء في هذا الموضع علي وجوه ، أحدهما أنه بمعني عمد وقصد إليها وقيل استوي هو معني فعله الذي هو علي غاية الإحكام والتدبير وسئل مالك رضي الله عنه عن قوله تعالى(ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ)(سورة طه : الآية ٥)كيف استوي ، قال الاستواء غير مجهول والكيف منه غير معقول والسؤال بدعة والإيمان به واجب وأراك صاحب بدعة أخرجوا وقيل أيضاً أراك ضالاً أخرجوه(٤).كما نراه في موضع آخر يرد علي

١ - ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٢٢٠/٢.الشورى : ١١.
٢ - ابن منظور : لسان العرب مادة "سوا "
٣ - سورة البقرة آية ٢٩.
٤ - الحوفي: البرهان ١١٢/١.

المعطلة بالأدلة ألعقلية ففي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1] يقول :" لآيَاتٍ معناه لعلامات ودلالات على أن وجود خالق ذلك ومنشئة اله وأحد ،" لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ "فمعناه والله اعلم لمن عقل مواضع الحجج وفهم عن الله عز وجل أدلته على وحدانيته فاعلم عباده بأن الأدلة إنما وضعت معتبراً لذوي العقول والتمييز دون غيرهم فالمعنى "إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ" بدليل ما أخبر ودل على أنه واحد فذكر خلق السموات وعظمها وأمها سقف بغير عمد وذكر الأرض وعظمها فيما تزل من سهلها وجبلها وبحارها وما فيها من معادن الذهب والفضة والحديد والرصاص وغير ذلك مما لايقدر أحد على مثلها ، وكذلك الرياح في تصريفها وما فيها من لواقح العذاب وغير ذلك وجميع ما ينبت في الأرض من دابة كل ذلك دليل على وحدانيته . فلأن قال قائل فانتم من المعطلة من ينكر خلق هذا ؟ الجواب : أن الله عز وجل حاج بذلك قوم مُقرّينَ إن الله خالق غير أنهم كانوا مشركون في عبادته عبادة الأصنام فقال عز وجل(... هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ...) (سورة الروم : من الآية ٤٠) ففي ما عددت من ذلك لآيات إن كنتم تعلمون وقيل دلائل هذه الآيات علي الوحدانية أما خلق السموات والأرض فيدل علي خالق ليشبه الأشياء ولا تشبهه الأشياء من مثل أنه لايقدر علي خلق الأجسام إلاَّ القديم إذ جميع المحدثات لابد لها من محدث وأما اختلاف الليل والنهار فيدل علي مدبر من جهة أن محكم متقن ،و أما الفلك يدل علي مدبر منعم دبر ذلك لمنافع الناس ليس من جنس الناس ومن جرى مجراهم ، وأما الماء الذي ينزل من السماء فيدل علي منعم به يقدر على التصرف فيما يشاء من الأمور لا يعجزه شيء ، وأما إحياء الأرض

١ - سورة البقرة آية ١٦٤.

بعد موتها فيدل علي الإنعام بما يحتاج إليه العباد ، وتصريف الرياح يدل علي الاقتدار علي ما يتأتي العباد ولو حرصوا علي الحرص واجتهدوا كل الاجتهاد ، وأما السحاب المسخر فيدل علي ممسكه القديم الذي لا شبيه له ولا نظير إذا لا يقدر علي تسكين الأجسام الثقال بغير علامة ولا دعامة إلا الله ، وكذلك وقوف الأرض فهي تدل على صانع غير مصنوع قديم لا يشبهه شيء فادر لا يعجزه شيء ،عالم لا يخفى عليه شيء ،حي لا يموت ،واحد ليس كمثله شيء ،سميع يصير ،لايعزب عنه شيء لأن صفات النقص لا تجوز عليه ويدل على أنه منعم لا يقدر غيره على الإنعام بمثله وانه يستحق بذلك العبادة دون غيره (١) . والحوفي في هذا ملتزم بالأدلة التي جاءت في النص القرآني وهذا خير دليل علي الرد علي المشبهة وأصحاب الفرق الذين تفرقوا فضلوا عن الطريق .

كما نراه في موضع آخر أن بعض آيات القرآن دليل وحجه على من انحرف عن طريق المستقيم ، ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٢).

يقول : وقد تضمنت الآيات الحجة على صحة الإيمان لندم المكذب به عنده رواية العذاب وحسرته على ما فات من تلك الحال ، والحجه على أن الله لا يقتطع أحدًا عن توبة ولا يخلف وعده بأنهم لو رُدَّوا لعادوا إلى المعصية وفيها اكبر الموعظة التي تصرف عن التسويق بالطاعة ، والحجة على الدهرية باعتقادهم ما ليس في أوائل العقول من غير

١ - الحوفي: البرهان ٣/٢٧-٢٨.
٢ - سورة الإنعام آية ٢٧ ،٢٨، ٢٩، ٣٠

دليل فهذا حجة الله عليهم في عقابهم لأنهم اعتقدوا ما ليس في أوائل عقولهم بغير دليل منصوب عليهم ، والحجة على منكري البعث لأنهم يصرون إلى الإقرار به في الوقت الذي لا ينفعهم فيكون وبالا عليهم ولو تقدم ذلك منهم لنجوا من الهلاك وفازوا بالخلود في الجنان(١).

وهذا الآيات دليل علي الدهرية ومنكري العبث وهم الذين قال عنهم البغدادي القائلون بالتناسخ أصناف : صنف من الفلاسفة وصنف من السمينة ، وهذان الصنفان كانا قبل دولة الإسلام وصنفان آخران ظهرا في دولة الإسلام ، أحدهما من جملة القدرية الأخرى من جملة الرافضة الغالية ، فأصحاب التناسخ من السمينة قالوا يقدم العالم وقالوا أيضا بإبطال النظر والاستدلال ، وزعموا أنه لا معلوم إلا من جهة الحواس الخمس وإنكار أكثرهم المعاد والبعث بعد الموت (٢). فهذا الآيات خير دليل عليهم .

وفي قوله تعالى﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(٣).

يرد الحوفي بهذه الآية على من أنكر أن الله غير قادر يقول: وقد تضمنت الآيات الحجة على من طلب آية غير ما أنزل الله لأن الله عز وجل قادر على تلك الآية لكنه لا ينزلها لما فيه من وجوه الحكمة بالمنع من الإفتيات على تدبير الله وتشهي كل احد خلاف تلك الآية مع أن فيما أنزله غِنَي وكفاية لمن طلب البصيرة من جهة الدلالة لا من جهة الضرورة ، والحجة على أن الله هو القادر على الإتيان بالآية كل حيوان في أرض مع أنه يرجع إلى أمة عظيمة فيحتاج إلى مدبره وقادر يرزقه ويشد خلته في أمور كثيرة لابد له منها ولا غني به عنها ، والقادر على ذلك قادر على نصب الآيات وهو الله عز وجل (٤). والحوفي بما جاء من الأدلة بما هو ثابت في آيات القرآن الكريم التزم منهج أهل السنة والجماعة من الرد على الفرق التي انتشرت وشاعت في عصره والأمثلة التي تؤيد

١ - الحوفي: البرهان ١٠/٣٢-٣٣.
٢ - البغدادي : السابق ١٦١،
٣ - سورة الإنعام آية ٣٧.
٤ - الحوفي: البرهان ١٠/٤٠.

ذلك كثيرة نقتصر بذلك بمثالين :ففي قوله تعالى﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(١).

يقول : ومعني الآية والله أعلم البينة على معرفة الإلهية والقدرة والإيمان بهما فالموت الأول إذا كنا نطفًا لا حياة فينا فصورها ونفخ فيها الأرواح فصرفنا إحياء ثم بميتنا بإخراج الأرواح من أجسادنا ثم يحينا لبعثنا ثم إليها نرجع إلى نرد إلى انفاذ حكمه فينا وما سبق عي علمه لنا وعلينا فدل على الحياة الثانية بالحياة الأولى ثم الموت بعدها وكان كقوله﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٢).﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ.... ﴾ (٣).

وأشباه ذلك مما دل به على حقيقة الأخرة والأولى وري معني ذلك عن أبي العالية وقد تضمنته الآية الأخبار بالحياة ولاماته والبعث بعد ألائماته والوعيد لمن أنكر البعث والتعجب ممن أنكر القدرة علي شيء بعد إقراره بالقدرة على مثله وثبوت الحجة عليه(٤).

وفي قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٥). يقول :ويقال كيف تصح الحجة بقوله الذي خلقكم على من لا يقر بذلك الجواب من المتفق عليه إذا كان الاختلاف فيه ليخرجه من أن يكون إذا تؤمل ظهر به صحة الحكم مالم تكن شبه تصد عنه وتمنع من إدراك الحق به وعلى العاقل إذا وَرَدَ عليه مثل ذلك أن يتأمل فإن اعترضته شبهة نظر في حلها وإن لم تعترضه شبهة فسيعلم بتلك الحجة و يجد بها الثقة، و كان عاقل فإنه يجد عقله يقتضي أنه له خالقاً خلقه ومدبراً دبّره و ذلك من أوكد حجة عليه مما يلزمه ،وقد قيل أن هذا الاحتجاج على مشركي العرب لأنهم يقرون أنهم خالقًا كما قال :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ

١- سورة البقرة آية ٢٨ .
٢- سورة يس آية ٧٩ .
٣- سورة العنكبوت آية ٢٠.
٤- الحوفي: البرهان ١٩/١.
٥- سورة البقرة آية٢١.

فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [1]، وكان محمد بن جرير يقول: الآية من أدل دليل على فساد قول من زعم أن تكليف ما لا يطاق إلا بمعونة الله غير جائز إلا بعد إعطاء الله المكلف المعونة على ما كلفه وذلك أن الله عز وجل أمر من وصف بعبادته والتوبة من كفره بعد إخباره عنه أنهم لا يؤمنون وأنهم عن ضلالتهم لا يرجعون[2].

وفي قوله تعالى(فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ)[3].

يقول وقد تضمنت الآية التنبيه على عظيم الآية من جهة المعجزة وواضح الدلالة والبيان عن وجه المقايسة التي يشهد بها العقل مؤكداً لها بالسمع لأنه لا شبهة على عاقل في أن الذي يقدر على إحياء هذا الميت يقدر على إحياء الميت الآخر كما أن القادر على تحريك هذه المروحة قادر على تحريك تلك المروحة الأخرى لأن هذه مقايسة يستوي العقلاء فيها وهذا أفضل المقايسات التي يستوي العقل فيها بين الشيئين في الحكم[4].

والحوفي بهذا كما قلنا من أهل السنة التزم بمنهجهم وسلك طريقهم على الرد على غلاة الشيعة وأصحاب الفرق التي ظهرت وانتشرت في عصره.

١- سورة الزخرف آية ٨٧ .
٢ - الحوفي: البرهان ٨٣/١.
٣ - سورة البقرة آية ٧٣.
٤ - الحوفي: البرهان ٢٢٨/١.